

«زوربا».. عاشق للحياة شيبته التجارب ولا يكف عن المغامرة

أثر سينمائي انتهى إلى أن الإنسان يحتاج إلى فك القيد ليصبح حراً



عمل مازال حاضراً في ذاكرة العالم

تخبره بالسبب؛ فيجب أن يكتب تخبره «بمعانسة الرجال الذين لا يستطيعون الإجابة عن أسئلة مثل «استنك».

ولا يكف زوربا عن الحياة، ويستجيب إلى كذبة ورطه فيها الرئيس، بالزواج من بوبولينا التي تتعجل ولا تبالي بعدم وجود كاهن، فإله يراهم، والرئيس شاهد، فيقترح زوربا الخروج «حتى يمكن لله أن يرانا بشكل أفضل». وفي تعاقب الللال والنور، يقف الرجلان وظهرهما للخلاء والبحر، يستقبلان الفندق الذي يأتي منه ضوء يصنع سجادة من النور على الرمال، وزوربا يرتل، وبوبولينا قادمة فيسهر لها بالاصطفاف للصلاة، ثم يرسم علامة الصليب لنفسه ولها. ولا تلبث أن تموت، وليس لها وريث، فيقتحم أهل القرية الفندق وينهبون محتوياته، وتتعرى الجدران إلا من الضوء، وينتزعها وحيدة مسعدة في سرير، وجسدها لا يزال محتفظاً بحرارة الحياة. وينتهي الفيلم بقول زوربا إن الإنسان يحتاج إلى شيء من الجنون؛ إن فك القيد ليصبح حراً، ويطلب منه الرئيس أن يعلمه الرقص.



زوربا بوعيه الفطري ورغبته في المغامرة، طغى على المؤلف والمخرج والموسيقي، وحقق شهرة تتسع دوائرها بازدياد عشاق الموسيقى والباليه

فاز الفيلم بثلاث جوائز أوسكار: أفضل إخراج فني، وأفضل تصوير لوالتر لاسالي، وأفضل ممثلة مساعدة لليللى كيدروفا، من سبعة ترشيحات للفيلم أنتج بعد سبع سنوات على موت كازانتزاكيس الذي سجل في سيرته «تقرير إلى جريكو» أن زوربا غول، علمه كيف يحب الحياة، والأخاف الموت، «يا لهذا الراقص المحارب ذي النفس العظيمة والجسد المتمكن والنداء المنطلق الذي لم أن، ولم أعرف، له شبيهاً في حياتي كلها»، وأن الذين تركوا في نفسه أثراً عميقاً هم هوميروس وبودا ونيبتشه وبيرجسون وزوربا، ولو سئل عن اختيار «بلبل روجي... فلا شك أنني كنت سأختار زوربا».

المنج، فيأتون ويعرف اثنان منهم ويطلب زوربا ويرقصون. ثم يحكي للرئيس أنه لما مات ابنه الوحيد «ديمترى»، في سن الثالثة، لم يفعل شيئاً إلا أن رقص، وظنوا به الجنون، ولكن الرقص أوقف الألم. ويحكي عن مشاركته في الحرب، «حاربت لكي ألهم العالم. هل تحارب معي أم تترك الجبل ينتصر علينا؟»، وخطط لتدمير الأخشاب من غابة في أعلى الجبل. وبالمناطق يستعيد الرئيس هذا الأمر؛ فالأشجار تخص الدير. هنا يقدم زوربا فلسفته وهي أن الدير يعود إلى الله، والله يعود إلى كل شخص، وهكذا تكون الأخشاب من حقهيم، وبها يصنعون الدعامات والسفن ويطوفون العالم. ويحتال على الرهبان بالاقتراب من أحدهم من حيث لا يراه، فيطن شيطاناً في الغابة، ويستدعي زملاءه الرهبان. وكان زوربا قد اعتلى شجرة، ووضع صليباً في إثناء مملوء بالخمر، فيقتربون من الإساء، ويفنون الصليب والإساء معجزة. ثم يصادقهم ويقنعهم ويبدأ مشروع الحصول على أخشاب الدير.

يسافر زوربا إلى المدينة لشراء ما ينفذ به خطته لتشغل المنجم، ويستعيد شبيهه مع امرأة يلتقيها من المهني، ويملي بذلك خطاباً ويرسله إلى الرئيس الذي تسأله بوبولينا عما قاله عنها زوربا في الخطاب، ويواسيها فيتورط في الكذب بأن زوربا ينوي الزواج منها.

وكانت يدو في حديقة بيتها تغني، ويلقي إليها بأفلاو رسالة، فتطويها دون قراءة وترميها تحت قدمي أبيه. هل كان يتبع ابنه، أم يسعى للوصول إليها؛ ينتهي المشهد بصغف مفاريدوني لابنه. وفي الوقت نفسه كان الرئيس يتشجع على الذهاب إليها بالتدرب على رقص زوربا ويفشل، فيجلبها إلى سانتوري، ويستخرج النغمة، ويضرب الأرض بقدميه، ويحتضن الحياة بنزاعه، ويحاول أن يتلبس روح زوربا. ثم تفتح له الباب في لقاء هو الأول والأخير. تجهش بالبكاء وتتعري من هشاشة لا يراها الذين يريدون نهش لحمها. تبكي في مشهد يطغى فيه البياض: وجهها الصافي، لون قميصها، جسدها، شراشف السرير، الستارة، جدران الغرفة. ويصل الخبر إلى بافلو، فيكتشفون مع الشروق انتحاره غرقاً، وتذهب الأرملة إلى الكنيسة للعرزاء، فيمنعها مفاريدوني ويحاصرونها، ويحترق صراخها الكنيسة فيترك الرئيس الصلاة، ويامر ميميكو بإبلاغ زوربا. يتواطون على الأرملة، يفتلون انتقاماً لإذلالهم؛ إذ رفضتهم واصطفت أجنبياً. وقبل القتل بشرع أحدهم في إذلال جسد شهى استعصى عليهم، فيشق الثياب عن صدرها، ويرسم الصليب، فتبكي وهي وحيدة مخذولة في مواجهة من يرمونها بالحجارة ويرسمون الصليب. وينفذها زوربا ويامرها أن تتبعه، فينبجها مفاريدوني غداً.

وفي الليل يبكي زوربا ويحار أمام عبث الموت؛ لماذا يموت الصغار؟ لماذا يموت الجميع؟ فيجيبه الكاتب: لا أعرف. فيسأله عن فائدة كتبه اللعينة؛ لماذا لا

لكي تقيها من المطر فتتردى، ثم تأخذها في صمت وامتنان، وفي عينيها فرحة واطمئنان وطمأنينة. ويكتفي زوربا بصغير يتشقى به منهم، ويواصل الصغير الذي يقطع الصمت المتصل، والعيون تنغم على الرئيس قبول الأرملة شمسيتها. وينفجر بافلو من الإشفاق عليها والغضب منهم هاربا من القهي، ويعودون إلى الصمت مخذولين؛ لانتصار الأرملة عليهم، وعودتها إلى البيت بكبرياتها.

عش في خطر

وفي الصمت كان زوربا يرسم على ورقة بيضاء، ويهمس فلا يسمعه إلا الرئيس، ويدعو إلى النظر إلى وجوههم، ويخبره بأن بافلو غاضب لهيامه الشديد بالأرملة، وأنها بصقت في وجهه، فإزداد تعلقها بها، وجميعهم يتشبهونها، ويكرهونها لأنهم يعجزون عن نيلها. ويسر إليه بان هنا رجلاً واحداً فقط يستطيع الوصول إليها، «أنت». ويتسم زوربا في لوم الفرح، أو فرح اللئيم الذي شبع من الدنيا، ويؤكد أنه قرأ نظريته وهي تتناول الشمسية. ويتسم الرئيس مهوئاً من المبالغة، فيوضح له الحكيم أن بين يديه هدية من الجنة، ومن السذاجة ألا يضيئها، وأن الله أعطانا الأيدي لنتشبث بالعلايا.

ويمران ببينتها، وقبل الاقتراب ينصحه زوربا بطرق الباب، بحجة استعادة الشمسية، والرئيس يرفض. ويعجب زوربا لهذا التردد، ويتوقع أنها تنتظر الزيارة. وكانت تطل من وراء الستارة من حيث لا يريها، وتكاد تسمع زوربا يقول بلسان نيتشه «إذا أردت أن تحصل على أجل ما في الحياة فعش في خطر»، وزوربا لم يقل هذا المعنى بهذه الفصاحة، وإنما بخبرة السنين «يا رئيس، الحياة مشكلة، الموت هو الوحيد الذي ليس مشكلة. ولكي تكون على قيد الحياة يجب أن تفك حزامك وتبحث عن المشكلة». وكان الرئيس خجولاً غير خبير بالنساء، ولا يزال أقل من التعلم من فلسفة زوربا الذي أصابته خيبة أمل. وكانت الأرملة تراقب وتترقب، وفي مسافة ضيقة بين الستارة وفريز النافذة بدت عينها اليسرى سهما ينكسر، في لقطه خاطفة طولها أقل من ثانيتين، ولكنها جسدت في إيجاز معاني الحسرة والخذلان. وفي وقت لاحق سيذكر زوربا للرئيس قول تركي حكيم له «لله قلب رحيم، ولكن هناك دنبا واحداً لا يغفره لأحد. إذا دعت امرأة رجلاً إلى الفراش ولم يستجب».

لا يخطط زوربا لأي شيء، هو ابن عفوية الحياة، يجرب فيخطئ ويصيب، ويقع فينهض. يرى أمامه مثقفاً تعوزه التجربة، فيدعوهم إلى الرقص معه، ويضرب زوربا بيده ضربات ليعثر على النغمة. ويرفع زراعته ليجسد النغمة بأصابعه، ويطير في الهواء ويدور حول نفسه، والرئيس يحمل المصباح ويتعجب. ويستدعي زوربا النغمة من خياله ويقفز فوق المائدة فوقق الفرحة عاملين في

بالمنج بفر العمال، تاركين الاتهم في بطن الجبل، ولا يبقى غيره فيظنونه مات. ثم يرونه خارجاً يكسوه الغبار، ويعطيهم ظهوره ويواجه الجبل متحدياً «أيتها الجبل اللعين، ساكن أحشائك». ويشفق الرئيس عليه وعلى العمال، ويرى أن يرتاحوا يوماً، وهنا يبدو وجه آخر لزوربا الساخر من رأسمالية هجينة يتمتع بها الرئيس «هل أنت رأسمالي غير خالص».

في أقل من عشرين ثانية يقدم الفيلم بلطته ويسو (الممثلة اليونانية إيرين باباس)، وهي أرملة جميلة تحتفي دائماً بالغضب وبثوب واحد أسود. مشهد صامت مثل أغلب مشاهدنا، فلا تنطق طوال الفيلم إلا بضع كلمات، ولا يسمع لها صوت إلا في مشهد الغناء والحب. وكان الرئيس وزوربا على رأس موكب يضم عجائز وأطفالاً من القرية، يزفونهما إلى فندق «بوبولينا». وفي الأعلى تطوي «ويدو» سلاوات منشورة تداعبها الريح. ومن بعيد ربما لخصها الرئيس، والأرجح أنها راته بعينها اليمنى، وكانت اليسرى لخوية بالأملة البيضاء.

اللقاء الثاني بين الرئيس والأرملة يمهّد لتراجيديا النهاية. كان المطر يهطل، ويلجأ زوربا والرئيس إلى القهي الذي يتصدره مفاريدوني (الممثل اليوناني جورج فوندياس) وابنه بافلو (الممثل اليوناني يورجو فويجيس)، وسط جمع من العمال، وقفت عذرة ويدو سبور البيت، واقتربت من القهي فادخلوها؛ ليستدرجوا الأرملة التي بحثت عن العذرة وانهدت إلى مكانها. ولا يرد عليها أحد على سؤالها: أين العذرة؟ وكان بعضهم يخبئها على سبيل المازحة، ويردون على سؤال المرأة بالسخرية في قهقهة ضابقت الشباب بافلو، فغضب وحاول المساعدة ولم يستطع، فتشعر الأرملة بالوحدة والقهر، وتبكي في صمت، فيخلص زوربا منهم العذرة، ويحملها إلى الباب في صحبة الرئيس، وتستدير الأرملة نحو الجمع وتبصق، وتتسلم العذرة، وفي صمت يبادر الرئيس بإعطائها الشمسية

على إيقاع موسيقى زوربا يبدأ فيلم «زوربا اليوناني»، وبها أيضا ينتهي مضافاً إليها، في المشهد الأخير، رقصة حررتها موسيقى ميكس ثيودوراكييس من حدود شخصية كتبها نيكوس كازانتزاكيس، ورسم ملامحها السينمائية المخرج مايكل كاكويانيس، وجسدها أنطوني كوين. ثم تخلص القلوعة من هذا كله، واستقلت عابرة الأجيال والثقافات، واستقرت واحدة من الكلاسيكيات، ولعلها الآن أشهر موسيقى تقترن برقصة تدعو إلى عشق الحياة. زوربا هو هدية القدر إلى كازانتزاكيس الذي ظل مدنياً له ويعتبره دليله الروحي. ومنذ مصادفة اللقاء به، أيقن الكاتب أنه عثر على كنز، وبدأ أن كليهما كان ينتظر الآخر. وتمكن كازانتزاكيس (1883-1957) من الوصول إلى روح زوربا وانتزع من الحياة البوهيمية، وزرعه في أرض الأدب برواية اختار لها عنوان «زوربا اليوناني» عام 1946. وفي عام 1964 اصطحب مايكل كاكويانيس شخصية زوربا من الأدب، وأطلقها في فضاء السينما الأكثر رحابة. ولم يكن الموسيقي اليوناني ثيودوراكييس أقل حظاً من كازانتزاكيس وكاكويانيس، فأصابه ذلك السحر، وألهمه زوربا موسيقى ترتبط الآن بالشخصية الدرامية لا بمؤلفها. وهكذا يكون زوربا الأمي، بوعيه الفطري ورغبته الدائمة في المغامرة، قد طغى على الثلاثة الكبار (المؤلف والمخرج والموسيقي)، وحقق شهرة عالمية تتسع دوائرها بازدياد عشاق الموسيقى والباليه وغيرهم ممن يرغبون في أن يكونوا فوق الحياة قليلاً.

الكاتب ويقدمها إليه، ويلتقط الرجل سيجارة، ويلج عليه الكاتب أن يحتفظ بالعلبة كلها، ويرد بتعفف أنه يريد واحدة فقط. وبانفة ينتظر أن يشعل له الكاتب

السيجارة، ثم ينفث الدخان باستمتاع. وليس لزوربا مهنة محددة، له يدان وقدمان ورأس يستطيع به القيام بمهام كثيرة. إنه طباح لو احتاج الكاتب إلى طباح، أما آخر مهنة فهي عامل في منجم، فهو يمتلك أنفاً حساساً للمعادن، ولكنه ضرب رئيسه فطرده. ويسأله زوربا عن عمله، فيجيب بأسيل أنه يكتب الشعر والمقالات، ولا يعرف زوربا ما معنى هذا، ويحذره زوربا «أنت تفكر كثيراً وهذه هي مشكلتك». ويعرف أنه نصف إنكليزي، ولد في بريطانيا لأب يوناني، وأنه لم يكتب منذ أشهر، وقد ورث في كريت أرضاً فيها منجم للفحم، مملوك منذ سنوات، ويريد إعادة تشغيله، يتفان على التعاون. وقبل الذهاب، يشترط زوربا أن يكون في العمل مجرد عامل لدى بأسيل الذي يدعوه منذ الآن «الرئيس»، وأما في أي شيء آخر، كاللعب أو الغناء، «فأنا أمك نفسي»، ويؤكد أنه لا يتنازل عن شرط الحرية ويوافق «الرئيس» على الصفقة.

اكتشاف الذات والعالم

في القرية يبدأ الرئيس رحلة اكتشاف الذات والعالم، ويتعلم من خبرة زوربا في الحياة ما لا تمكنه له قراءة الكتب. ويكتسب خبرات في التعامل مع ما يطرأ من مشكلات في مجتمع مغلق يضم العجائز والعمال والأعيان والرهبان وأرملة فاتنة ترفض الزواج، ولا تستمع لأحد بالاقتراب من بيتها أو مساعدتها باستثناء شاب لديه بعض الإعاقة العقلية، اسمه ميميكو (الممثل اليوناني سوتيريس موسستاكاس). ليس في القرية غريب إلا الرئيس والسيدة هوريتيس، وهي فرنسية يناديها زوربا باسم الدلال «بوبولينا»، وتمتلك فندقاً صغيراً، وتعيش وحيدة على نكرياتها، وقد جاءت إلى كريت مع الأسطول البريطاني رفيقة للأدميرال، ثم أقامت علاقات مع ثلاثة أدميرالات من فرنسا وإيطاليا وروسيا. وامتدت علاقاتها كخليفة لأقرباء في بيروت والإسكندرية وإسطنبول.

في مشهد قصيرة، يقدم الفيلم الذي يبلغ طوله 142 دقيقة أبطاله، وأولهم زوربا الحكيم الذي يجيد قراءة الوجوه، فهو جسور لا يهاب الموت، ولكنه غير متهور، ويلوذ بالصمت أحياناً إذا لزم الصمت. ففي أحد انهيارات الدعامات الخشبية

سعد القرش
روائي مصري

في المبناء يلتقي رجلاً لا يمكن، بحكم المنطق وطبائع العلاقات بين الناس، أن تنشأ بينهما صداقة؛ فلكليهما عالم نقض الآخر. كاتب إنكليزي أنيق، يحتمي من المطر بشمسيتها وبها يحمي صندوق الكتب من اللبل. وعامل أمي غير متقل بشيء، وكل متاعه أغراض قليلة في بئجة يربطها بجبل في غير إتيان، وتتنبه مخلاة الجنود وتندلس من كتفه وراء ظهره. ويحمل في الكتف الأخرى حقيبة صغيرة تتسع لإلة موسيقية يسميها «سانتوري» تصاحبه أينما يذهب.

زوربا وريث الصعاليك

في تعبير بصري بلغم، يلخص المشهد الأول في الفيلم عالمي الرجلين. شباب يجلس مطمئناً في الاستراحة، بنياط كاملة مهذمة تحت المظف، هو الكاتب بأسيل (الممثل البريطاني الآن باتس)، ملامحه واضحة، صارمة أيضاً بوجه مضى، وشعر معتنى به تحت قبعة، ويفتح كتاباً من منتصفه فيبدو أنه يواصل القراءة، انتظارا لإبحار السفينة بعد هبوب العاصفة. والعالم زوربا (أنطوني كوين) في الخارج يستكشف الاستراحة، ويظهر عبر زجاج نصف معتم، مغشٍ من أثر الرذاذ ويخفي الكثير من ملامح وجهه ينشئ بأنه لرجل خرج الآن من منجم. ثم يدخل الاستراحة بنياطه الرثة، ويتأمل الوجوه، وتستقر نظراته على الكاتب الذي يترك القراءة والكتاب لا يزال مفتوحاً في يده، ويبالده نظرة ثم يواصل القراءة. يقرب منه زوربا، ويقتمحه بنظرة تتسم بالحدة والثقة والذكاء، كأنه لا يرى غيره. ويشغل الكاتب بالقراءة، وهذا لا يروق زوربا فينزع بيمينه البريه الملقب ويضرب به كفه اليسرى، فينفذ المطر، ويحدث صوتاً يجبر الكاتب على الانتباه. ويسأله زوربا مباشرة «أنت على سفر». ولأن الكاتب مثل كل المنظرين على سفر، فليس للسؤال معنى، ولكنه محاولة أمينة لفتح حوار يخلو من الالتباسات. وينظر إليه الكاتب، ويسأله زوربا عن وجهته، فيجيب: كريت. ويرجوه زوربا أن يصطحبه معه، ولو طباحاً له.

يبدو زوربا وريث الصعاليك من سلاله النبلاء، ففي سلوكه كبرياء وترفع. يمد يده إلى علبة سجائر على المائدة، ويعرف نوعها «فريجينا»، ويضعها. فيفتحتها



زوربا ابن عفوية الحياة